بين العقاد والرافعي

العقـــاد

للأستاذ سيد قطب

— ٧ —

عاد الأستاذ شاكر إلى خلته التي تركناه لها ، وتركناه من أجلها ، وما أحسبه ولا الأدب بمفيدين من هذه الخلة شيئا ، وما أحسبني ولا رأيي خاسرين بها كذلك . فليقل إذن ، ما دام القول هكذا يريحه — وإنا لنبغي له الراحة إن شاء الله — ولسواه !

أما أنا فعلى منهاجي في تقسيم الموضوع سأسير ، فإن أتى الأستاذ بشيء ، غير ما يحلو له أن يفرط علينا به ، فسأجعل ختام حديثي عن العقاد تعاشيا له فيه ، كما صنعت في ختام حديثي عن الرافعي ، وهذا آخر ما نستطيع أن نكرم الأستاذ به

وأما الأستاذ « الطنطاوي » فأنا أكرم « دمشق » وجيرتها أن أكسب خصومته إذا أنا شئت الجد في وصف كلته ، ووضعتها حيث ينبغي وضعها من الأدب والرأي ، في مدارج الآداب والآراء . ولعلي بصمتي عنها أكون قد شئت له أفضل مما شاء لنفسه . وليسأل في ذلك « المتقدمين من نقدة الأدب » الذين يقف عند آرائهم .

سيد قطب

من الناس من يقف عند ظواهر الأشياء والآراء ، كما يقف الميزان من الوزونات ، لا يميز بين أنواعها ، ولكن يميز بين كثافاتها . وهؤلاء هم « الشكليون » في إحساسهم وأحكامهم ، وهم والميزان الميت الجامد سواء

وفي مثل هؤلاء يقول العقاد ، مصدراً عن « طبع قوي يخلق المبادئ الخلقية ، ويختار ما يناسبه ، ويرفض ما لا يرتاح إليه ، ولو تواضع الناس عليه » كما قلت في أول كلمة :

إنا نريد إذا ما الظلم حاق بنا عدلَ الأناسيّ لا عدلَ الموازين
عدلُ الموازين ظلم حين تنصبها على المساواة بين الحرّ والدون
ما فرّقت كفة الميزان أو عدلتْ بين الحليّ وأحجار الطواحين

هؤلاء العادلون — على طريقة الموازين — يقولون : إن للعقاد مدرسة ، وللرافعي مدرسة ؛ ولكل من المدرستين تلاميذ وأنصار ، فمن الغلو إذن أن ينكر أنصار إحدى المدرستين طريقة الأخرى ، وأن يقسوا في نقدها والزراية عليها

ومن هؤلاء من يقول عنا : « ويكفيه مما مضى في كلامنا وكلامه أن يعلم أنه نزه العقاد ورفعه أرفع درجة ، وأننا لم ننزه الرافعي ولم نقل فيه بعض ما يقول هو في الشاعر الكبير صاحبه » يقول هذا وهو يحسب أنه نصب ميزان العدالة الحساس في تورع وتنطس وإحكام

المسألة أيها الناس ، ليست هي الاعتقاد في أمر من الأمور ، ولكنها قيمة هذا الاعتقاد وحظه من البصيرة ، وحقه من الاحترام والبقاء . والمسألة ليست مسألة طريقة خاصة في الأدب أو الرأي — أيا كانت قيمتها — ولكنها حقيقة هذه الطريقة وصلاحيتها للحياة والدوام

فلنكن للرافعيين مدرسة في الأدب ، ولتكن عقيدتهم فيها ما تكون ، فيبقى بعد ذلك أنني حين أنكرتها عليهم ، لم أكتف بإشارات الصم البكم في القبول أو الانكار ، ولكني نقدت ما فيها من نقص الحيوية ، واستغلاق الطبع ، وأتيت على هذا بالأمثلة التي تثبت موت هذه الطريقة ، وعجزها عن مسايرة الحياة . وهذا هو منـاط الحكم ، وهذا هو « عدل الأناسي » الذي يحسب حساباً للكيف والنوع ، لا عدل الموازين الذي لا يحفل بغير الكم والوزن

أما قولة أحدهم إنني رفعت صاحبي ، ولم يقل هو في صاحبه بعض ما قلت ، فلكأننا في معرض مفاخرة على طريقة القدماء ، لا يهم فيها الواقع والصدق ، إنما يهم فيها الفخر و « النخع » ؛ وكأنما الحكاية كلام يقال ، ثم لا ينظر ما وراءه من دليل

أنا يا سيدي أقول ما أقول ، وأشفعه بالمثال والدليل ، فإن كان لك قول فلتناقش هذه الأمثلة والأدلة ، أو لتأت بغيرها مما يدل على نقيضها . فأما التظاهر بالتورع والتنطس ! فقد يدل على غير العدالة النفسية التي لا تحفل الظواهر والشكليات ، متى قام لها من حقيقة الموضوع ما يدعمها ويقنع بها

ولعل الذين يعدلون — عدل الموازين — يقنعون بهذا ، ويفهمون أن المسألة ليست طريقة وطريقة ، ولا رأياً ورأياً ، وإنما هي قيمة هذا الرأي وتلك الطريقة

* * *

ومن الناس من هم عوام في تقديراتهم الاجتماعية ، لا تبلغ قداسة الرأي عندهم ، ولا دفعة اليقين بأمر من الأمور ، أن يتغلبوا بهما على ما تواضع العوام عليه من رسميات وشكليات ، والموت عند هؤلاء يكفي لأن تطبق فمك عن كل حق ، وأن تضم شفتيك عن كل رأي ، ولو وجدت مناسباته ودواعيه

وفى هؤلاء يقول العقاد متعالياً على القيود الاجتماعية العامية :

أرى فى جلال الموت إن كان صادقاً جلالة حق لا جلالة باطل
فلا تحسبان الموت حجة كاذب لمدحة مذموم ورفعة سافل

ومع تعديل فى كلمتى « مذموم وسافل » تنطبق الحالة على ما نحن فيه اليوم من حديث عن الرافعى ونقده وأدبه . فما دام الرافعى قد مات ، فيجب حينئذ أن يقول أنصاره عنه ما يقولون فلا نتعرض لتزييف مدائحهم فيه ؛ ثم لا يكتفون بهذا بل يقولون عن خصومه ما يقولون فلا نتعرض كذلك لشىء مما يقولون ! أليس الرافعى قد مات ؟ فلئن كان الموت هكذا فليبطلن إذن عمل التاريخ ، وعمل النقد ، ولتتحطم مقاييس الرأى ومعايير الأدب ، وليكونن الموت « امتيازاً » من الامتيازات التى يلوذ بها كل مخطئ وكل متخلف !

والحمد لله أن بنا من الشجاعة ما نواجه به عامية العوام فى هذه الاعتقادات ، ونصدر به الرأى خالصاً من كل تنطس مصطنع ، وتكلف ذميم

* * *

ومن الناس من لا رأى له فيما يحس ويرى ، أو لا عقيدة له فى رأى أو اتجاه ، أو لا حماسة له فى عقيدة ، فهو من هذا يحسب الناس سواه كذلك ، ولا يستطيع أن يلمح فى عمل من أعمالهم دفعة اليقين ، وحماسة الاعتقاد ، ولا يفهم إلا أن خلفهم آخرين يدفعونهم ويزجونهم . ذلك أنه ناضب العقيدة ، فاتر الحماسة ، فقير العاطفة ، لا يفهم ما لم يكابد ، ولا يتخيل ما لم يحس

وليس عندى لهؤلاء ما أقوله ، لأنهم منطفيون مع نفوسهم ، ومع طبيعة مدرستهم .

ولكنى أقول لمن يستطيعون أن يفهموا شيئاً عن دوافع النفوس الانسانية : إنه لم يكن من الحتم أن أنتظر تأذى العقاد مما كتب الأستاذ سعيد لأشعر أنا بالتأذى ؛ وأن العقاد ليس صاحب القضية وحده فيما يكتب عن أدبه وردوده ، وتقدسواه له ، وإنما صاحب القضية هو كل ذى رأى فيها ، وكل صاحب عقيدة فى الرافعى أو العقاد ، وتلك فسحة فى « النفس » لا نطمع أن تدركها المدرسة الرافعية . فبحسبها الفسحة فى تنميق العبارات وتبخير الكلمات ، وتثنى الأساليب !

* * *

ثم نأخذ فى الحديث عن العقاد تكملة لحديث البارحة ، وتدليلا على ما أوردنا من نظريات مجملة ، فيما يصب فى نفس العقاد من ثقافات عالية ، وماينضح به أدبه من هذه الثقافات ، وما تخلقه طبيعته خلقاً من اتجاهات ، تبدو فيها آثار الثقافة البصيرة ، مما يحتم على دارسه — بله ناقده — الالمام بالمعارف الإنسانية العامة ، فوق فسحة فى الضمير ، وتوفز فى الشعور .. يقول العقاد

بك خف الجناح يأيها الطير وما كنت بالجناح تخف
لطف روح أعار جنبيك ريشا فمن الروح لا من الريش لطف

فتحس هنا لطف الاحساس ، ونفوذ البصيرة ، ورفرفة الروح الفنية ، وهى تتبع القوى الحية الكامنة فى روح الطائر ، وترى رفرفتها من الداخل ، وتحس خفتها ورشاقتها فى ما هيتها الأولى ، حتى لتعير جانبيه ريشا

وهذه هى ميزة الفنان الحىّ فى الشعور بالحياة الباطنة لا بمظاهرها الخارجية وحدها ، وفى الالتفات إلى خلجاتها فى الضمير ، لا فى السطوح بمفردها

ولكنك خليق أن تجد بجانب هذه النظرة مصداقها من الروح العلمية ، فعلم وظائف الأعضاء يقول : إن الوظيفة تخلق العضو . فوظيفة الطيران هي التى خلقت الريش وقبله الجناح

وقد لا يكون الفنان الصادق فى حاجة للعلم بهذه النظرية ليقول هذا القول . ولكن المفسر والناقد فى حاجة ماسة إليها ، ليدرك جمال الخاطرة كاملا ، ويستوثقا من صدق الفطرة واضحاً ، ولكي لا يخطر لهما أن ينظرا إلى الأشكال الخارجية وحدها فيريا الطائر يطير بالجناح ، فهذا إذن سبب الطيران !

ودراسة الأحياء هى « العلم » الذى يلد المادة « الفن » فالشاعر العظيم لا بد له من قسط منه ، لأنه أصيل فى طبعه ، إذ كانت « الحياة » أجل ما يلفت نظره وحسه ، ويخالج وجدانه وضميره . وأنت واجد فى شعر العقاد لفتات شتى إلى دراسة الأحياء علما وفنا . وديوان « هدية الكروان » أحفل دواوينه بهذه الناحية فى دراسة الطيور والتطلع إلى الحياة النابضة فى ضمائرها وكيانها ، وإلى عوامل التفاؤل والاستبشار فى عيشها وتصرفاتها ، مع مزج ذلك بالنظريات الفلسفية منقولة إلى الصورة الفنية . وفى « وحى الأربعين » لفتات كذلك إلى الغرائز والطباع فى الأحياء عامة فى فصل « تأملات فى الحياة » وقد فصلت رأيى فيها فى محاضرتى عنه سنة ١٩٣٤ . وكذلك قد حوى « عابر سبيل » كثيراً من هذا .

يقف أمام « الجيبون » فى حديقة الحيوان ، فتنثال على نفسه الخواطر ، ونلمح فيها نظريات علم النفس الحديث ، إلى جانب الفلسفة الصوفية ، ومزاجهما الاحساس بالحياة النابضة فى ضمير هذا «الجيبون» ، والآمال التراثية فى خياله ، والأشواق الفائرة في أحلامه ، وهو يقفز ويرقص : وبجانب هـذا كله أثر الدراسة لدارون ونظريته :

أيهـذا الجيبون أنعم سلاما ... يا أبا العبقـري والبهلوان
كيف يرضى لك البنون مقاما ... مزريا فى حـديقة الحيوان !

* * *

ألبث الآن وانتظر بعد حقب ... ترق فى « سلم الرق » وتعل
كيف لم تصعد السلالم وثبا ... أيهـا الصاعـد الذى لا يكل

* * *

يا عميد الفنون صبراً ومهلا ... وارض حظ الهتاف والتهليل
مرحباً مرحباً وأهلا وسهلا ... والهدايا ما بين لب وفول !

* * *

انتظر يا صديق شيئاً فشيئاً ... تطبخ القوت كله بيـديكا
غير أني إخال ما كان نيئاً ... منه أجدى فى الحالتين عليكا

* * *

انتظر يا صـديق مليون عام ... أو ملايين لست والله أدري
إن تدانيت بعدها من مقامي ... فقصارى الطاف أن لست تدري !

* * *

واصطبر إن عناك نثر ونظم ... سوف تتلو نثراً وتنظم شعراً
وغـدا يطفر الخيـال ويسمو ... والذراعان لا تطيقان طفراً

* * *

وإذا ما درست أوزان رقص ... بعد لأى فالرقص فيك انطباع
هل تنال الكمال من بعد نقص ... إن أفلتك فـكرة لا ذراع

* * *

انتظر سوف تفهم الشيء باسم ... بعد رسم وغابر بعـد حال
فاذا ما طلبت باطن فهم ... يا صـديق طلبت أى محال

* * *

ولا تقف الاشارة إلى نظرية النشوء والارتقاء فى هذه القطعة — بجانب الاحساس الفني فيها — عند ظاهرها الذى يلمله كل من سمع بها ؛ فالمقاطع من الرابع إلى الثامن تدل على فهم تام لها وهى تشير إلى أن الطبيعة لا تسرف فى المواهب ، فحين تمنح موهبة تسلب ما كان يقوم مقامها . فهذا الجيبون حينما يطفر خياله فى المستقبل فالذراعان لا تطيقان طفراً ، وحينما تقله الفكرة ستخذله الذراع . ثم هناك بيان لمدارج الرقى بين الانسان والحيوان ، فهذا يفهم الشيء برسمه ، وذلك يفهمه باسمه ، وهذا يتذكر الحاضر وحده ، بينما ذلك يتذكر الغابر ويستعيده ، ثم فيها الاقرار بالعجز الانسانى أمام الغيب المجهول ، والسخرية بالمعرفة الانسانية القاصرة ، فقصارى الجيبون حين يصل إلى مرتبة الانسان أن يعرف الأشياء بالأسماء ويتذكر ما فات وأن تقله الفكرة لا الذراع ويطفر خياله ويسمو

فاذا ما طلبت باطن فهم ... يا صديق طلبت أى محال !

أو :

إن تدانيت بعدها من مقامي ... فقصارى الطاف أن لست تدرى !

وهناك الايمان بالغريزة والاعجاب بطابعها الخالص :

وإذا ما درست أوزان رقص ... بعد لأى ، فالرقص فيك انطباع !

والنيء أجدى من المطبوخ فى حالتى هذا الجيبون الصديق.

وهناك بعد هذا كله ذلك التعاطف بين الحى والحى ، والشعور بالآصرة التى تربطهما ، واستعراض الآمال والأشواق فى أبى العبقري والبهلوان !

وللقصيدة بقية تنحو هذه المناحى

وهذه قطعة واحدة من شعر العقاد ، تزدحم بكل هـذه الدراسات واللفتات ، وذلك بعض ما عنيناه برحابة نفسه ، وتوفر شعوره ، وصدق فطرته ؛ وذلك مالا يعنى المدرسة الرافعية ، لأنها مشغولة عن مثله بمآرب أخرى فى تطريز الأساليب وتوشية التعبير واستعارة الحكم والأقوال المأثورة

ولعل فى هذا رداً على « المتقدمين من نقدة الأدب » الذين يرون المعاني ملقاة على قارعة الطريق ... ! وقد تكون كذلك ولكن ليس كل من يمر بالطريق مفتوح العينين ليراها ويدرك ما فيها من جمال وتعبير عن حقيقة ثمينة ؛ حتى لا يكون أمامه بعد هذا إلا أن ينصرف لتجويد الأسلوب . وها هو ذا «الجيبون» فى حديقة الحيوان يمر عليه الرائح والغادى ، ويراه الرافعيون كلما زاروا الحدائق . ولكن العقاد وحده هو الذى يقف أمامه ملتفتاً هذه اللفتات ، لأن فى نفسه ذخيرة ينفق منها ، وحياة يفيضها على ما يراه ؛ وتلك ميزته عمن عداه

« حلوان » سيد قطب